مع شوقى فى اسواق الذهـــــب

دكتـــور
عبدالرحمن مهدى احمـــــد

على الرغم من أن أحمد شوقي طارت شهرته في الشعر الى الحد الذي جعله يتربع على امارته بلقبه المشهور فانه خاض غمار النثر الفني ، مما جعل انتاجه فيه يذكر قارئه بطريقة فحول الكتابة العربية أمثال عبد الحميد الكاتب وابن العميد والقاضي الفاضل ، وخير شاهد على ذلك كتاب "أسواق الذهب" الذي أعلن مؤلفه في مقدمته بطريق غير مباشر أنه عند ما وضعه كان مستلهما خطب زياد بن أبيه أشهر خطبا الجاهلية ، ومعارضا كتاب "أطواق الذهب" للزمخشري وكتاب "أطباق الذهب" للأصفهاني . ويلمح هذا من قول شوقي : (وبعد ، فهذه فصول من النثر ، وما زعمت أنها غرر زياد[1] أو فقر الفصح من اياد[2] ، أو سجع المطوقة على فرع غصنها المياد[3] ، ولا توهمت حين أنشأتها أني صنعت "أطواق الذهب" للزمخشري[4] ، أو طبعت "أطباق الذهب" ، للأصفهاني — وان سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ، ووسمته[5] بما يقرب في الحسن من وسميهما)[6] .

ولعل تسميته كتابه هذا بـ"أسواق الذهب" فيها اشارة غير خفية لتأثره بكتابي الزمخشري والأصفهاني مع مافي كلمة "أسواق الذهب" من رحابة ؛ لأن الأطواق والأطباق أصغر بكثير من الأسواق .

والناظر في "أسواق الذهب" يلفت نظره اليه أكثر من شيء ، أولها أنه وضع في قالب نثري على الرغم من أن كاتبه يكفي أن يقال عنه انه "أمير الشعراء" — كما سبقت الاشارة — ، وثانيها غزارة مادته وتنوعها رغم صغر حجم الكتاب[7] ، أما الغزارة فيظهرها عدد المقالات التي احتوى عليها هذا الكتاب ، اذ بلغت تسعا وأربعين مقالة .

وأما تنوع هذه المقالات فيظهر من أسمائها [٨] ؛ حيث تناولت عدة جوانب من جوانب العلم والأدب : منها ماتناول قضايا قومية خاصة بوطنه مثل "قناة السويس" ، و"الأهرام" ، ومنها ماتناول قضايا عقائدية مثل "الحقيقة الواحدة" ، ومنها ماتناول قضايا انسانية ، مثل "الحياة" و"الأمومة" و"الشباب" ، ومنها مايتناول قضايا تدخل ضمن الأدب العالمى مثل "الجندى المجهول" ومنها مايتناول موضوعات تدعو الى الفضيلة والى ترك الرذيلة مثل "شاهد الزور" و"الظلم" ، و"الصبر" ، و"العلم" ومنها مايتناول موضوعات ذات صلة وثيقة بالدين الاسلامى مثل "المسجد الحرام" و"الشهادة" و"الصلاة" ، و"الصوم" و"الزكاة" و"الحج" و"خطب المساجد" ومنها مايتناول موضوعات تتعلق بالأدب والنحو مثل "البيان" و"النقد" و"السجع" ومنها مايتناول موضوعات فلسفية مثل "الجمال" وغيرها من الموضوعات التى تكشف عن غزارة ثقافة الكاتب وسعة أفقه . والذى يزيد من قيمة هذا الكتاب الفنية أنه جاء فى أسلوب جمع بين الرصانة والجزالة ، والجمال الفنى والدقة فى التعبير مما يجعله خير شاهد على قدرة لغتنا العربية على احتواء مختلف المعارف والأغراض على مر العصور دون أى تغيير لاهابها الذى عرفت به منذ أول ماعرفت من حيث الجمال الذى توجه القرآن الكريم ، فلقد كان شوقى حكيما يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها محافظا فى اللغة العربية تتسع لكل صورة ومعنى ولكل فكرة وخيال [٩] .

ومن يمعن النظر فى قراءة أى موضوع من هذه الموضوعات التى احتوى عليها كتاب "أسواق الذهب" يلاحظ أن كاتبه كان دقيقا فى تقسيم الموضوع ذاته الى جزئيات دقيقة تتآزر كلها على اخراج الموضوع فى صورة متكاملة تكشف عن قدرة شوقى على معالجة الموضوع من عدة جوانب من ذلك مثلا حديثه عن الشمس فهو يتحدث عن ارتفاعها وحرارتها ودوام انارتها وشكلها والاعتماد عليها فى حساب

الزمن ، والفوائد التى تصلح بها الأرض وماعليها من كائنات ، كل ذلك فـــــى أسلوب يدعو الى التسليم للخالق بعظيم قدرته وللكاتب ببراعة فنه [١٠] .

وحتى يزداد أسلوب شوقى الذى كتب به " أسواق الذهب " وضوحا مـــــن حيث قيمة الموضوعات التى تناولها فيه ، والفكرة التى عالج بها موضوعاته والأسلوب الذى صاغ فيه هذه الأفكار سوف أتناول بالتفصيل أحد هذه الموضوعات بالدراسة والتحليل ، وهو الموضوع الذى جساه تحت اسم " الحقيقة الواحدة " والـــــذى قال فيه : (يامتابع الملاحدة ، مشايع العصبة الجاحدة ، منكر الحقيقة الواحدة : ماللأعمى والمرآة ، ومالمقعد [١١] والمرقاة [١٢] ، ومالك والبحث عن الله ؟ .

قم الى السماء تقص [١٣] النظر ، وقص الأثر [١٤] واجمع الخبر والخبر [١٥] . كيـــف ترى ائتلاف الفلك واختلاف النور والحلك [١٦] ، وهذا الهواء المشترك ، وكيف تـــرى الطير تحسبه ترك ، وهـــو فى شرك [١٧] استهدف فما نجا حتى هلك [١٨] تعالى الله ! دل الملك على الملك ! . وقف بالأرض سلها من زم [١٩] السحاب وأجراها ورحل [٢٠] الرياح وعراها [٢١] ، ومن أقعد الجبال وأنهض ذراها [٢٢] ، ومن الذى يحل حباها [٢٣] فتخر له فى غد جباها ؟ أليس الذى بدأها غبرات [٢٤] ، ثـــم جمعها صخرات ، ثم فرقها مشمخرات [٢٥] . ثم سل النمل من أدقها خلقا [٢٦] ، وملأها خلقا [٢٧] ، وسلكها طرقا [٢٨] تبتغى رزقا ؟ ، وسل النحل من ألبســـها الحبر [٢٩] وقلدها الابر [٣٠] ، وأطعمها صفو الزهر ، وسخرها طاهية [٣١] للبشـــر ؟ لقد نبذت الذلول [٣٢] المسعفة [٣٣] ، وأخذت فى معامى الفلسفة [٣٤] على عشواء مـــن الضلال معسفة [٣٥] . أولا فخبرنى : الطبيعة من طبعها [٣٦] والنظم [٣٧] المتقادمـــة من وضعها ، والحياة الصانعة من صنعها ، والحركة الدافعة من دفعها ؟ ! عرفنا كما عرفت المادة ، ولكن هدينا وضللت الجادة [٣٨] ، وقلنا مثلك بالهيولـــى [٣٩] !

ولكن لم تجحد اليد الطولى [٤٠] ، ولاأنكرنا الحقيقة الأولى [٤١] . أتيتنا العناصر من عنصرها [٤٢] ، وردتنا الجواهر الى جوهرها [٤٣] ؛ اطرحنا [٤٤] فاسترحنا وَسَلَّمنا فسلِمنا ، وآمنا فأمنا ؛ وما الفرق بيننا وبينك الا أنك قد عجزت فقلت سر من الأسرار ، وعجزنا نحن فقلنا . الله وراء كل ستار !!) [٤٥] ،

يدخل موضوع الوحدانية فى باب التوحيد وهو أعمق وأدق أبواب الفلسفة ، ولكن المؤلف وفق فى معالجة هذا الموضوع الدقيق أيما توفيق بأسلوب بديع رشيق ؛ فقد تناول شوقى موضوع الحقيقة الواحدة تناولا دقيقا يتماشى ودقة الموضوع ؛ وذلك بعدم الخروج على الأسلوب الذى يناسب مثل هذه الموضوعات، وهو الأسلوب المنطقى .

فنراه يبدأ حديثه بالنداء الذى استعمل فيه أداة من أعلى أدوات النداء صوتا ، وهو كلمة " يا " التى تستخدم فى نداء البعيد نظرا لبعده عن الحقيقة والواقع ؛ مما جعل بقية أدوات النداء لاتصلح معه ؛ لأنه ان كان قريبا فى المكان ، فانه فى حكم البعيد لغفلته التى تشبه غفلة النائم .

ولم يكتف الكاتب بتنبيه مخاطبه بالنداء العالى بل راح يؤكد له أنه هو المقصود بهذا النداء ، وذلك بذكر عدة صفات تنطبق عليه . أتى بها الكاتب متوالية بلا عطف ؛ ليكون عملها أسرع فى أذن وذهن هذا المخاطب ، وذلك حيث قال : (يامتابع الملاحدة ، مشايع الصبة الجاحدة ، منكر الحقيقة الواحدة)

وبعدما يتأكد الكاتب من تنبه مخاطبه يلقى عليه عدة أسئلة تتعلق به ؛ اثنان منها غير مباشرة ، ولكنها تعريض بحاله يفسرها السؤال الثالث الذى يوجه اليه مباشرة بكاف الخطاب ، وذلك حيث يقول : (مالأعمى والمرآة ومالمقعد والمرقاة ، ومالك وللبحث عن الله ؟ !) .

والمتأمل فى هذه الأسئلة يحس فيها روح التهكم التى رأى الكاتب أنها أنسب طريقة للتعامل مع مرتكب لأكبر الكبائر لمكابرته فى الاذعان بوحدانية الله سبحانه وتعالى التى لاتخفى على عاقل ، وبعدما يتأكد الكاتب من تنبه المخاطب الى عظم جرمه ينصحه بطريقة حازمة الى اثبات جرمه على نفسه بنفسه ، ويظهر من خلال قصر الجمل مدى الحدة التى يخاطب بها الكاتب هذا الملحد ليحثه على سرعة تنفيذ مايأمره به كى تزول أسباب إلحاده فى أقصر وقت ، وذلك حيث يقول : (قم الى السماء تقص النظر ، وقص الأثر ، واجمع الخُبْرَ والخبر) .

وبعدما يشعر الكاتب أن مأموره قد نفذ مأمره به يتابع رسالته فى انقاذ هذا الملحد من هاوية الإلحاد فيسأله عن نتيجة بحثه الذى أمره به ، وذلك ليؤكد فى نفس هذا الملحد آيات من آيات الله ربما تكون غشاوة الإلحاد أخفتها عليه فيسأله عن ائتلاف الفلك واختلاف النور والحلك والهواء المشترك والطير الذى يتوهمه الرائى أنه حر ولكنه فى الحقيقة فى شرك ويتوج جلاء لهذه الآيات البالغات بإجابة تثبت فى القلوب الإيمان بالله ، هذه الآية التى فحواها أن كل مارآه ماهو إلا دليل على وجود الله مالك هذا الملك ، وذلك حيث يقول : (كيف ترى ائتلاف الفلك واختلاف النور والحلك ، وهذا الهواء المشترك ، وكيف ترى الطير وتحسبه ترك وهو فى شرك استهدف فما نجا حتى هلك تعالى الله دل الملك على الملك) .

والمتأمل فى الأسئلة التى أتى بها الكاتب فى هذه الفقرة يلاحظ أنها كلها متعلقة بما أمره بأدائه ، فالفلك والنور والظلمة والهواء والطير كلها تمت بسبب الى السماء التى أمر الكاتب هذا المخاطب بأن يقوم ليتأمل مافيها مما يدل على أن هذا الكاتب دقيق فى تعبيره منظم فى تفكيره ، لايطلب من يخاطبه أكثر مما يؤهله

تنفيذ أمره للوقوف عليه ..

واذا ماسرنا مع الكاتب رأينا أنه يؤكد لهذا الملحد وحدانية الله بعدة آيات أخرى يبدؤها بفعل أمر قوى اللهجة عالى الصوت ، وكأنه أراد ألا يفترتنبه هذا الملحد عن التأمل فيقول له : (قف بالأرض سلها ...) وقد يلفت النظر الى استخدامه فى تأمل الآيات المرتبطة بالسماء كلمة "قم" واستخدامه فى تأمل الآيات المرتبطة بالأرض كلمة "قف" ، وهذا يؤكد حسن اختيار الكاتب للكلمات التى تعينه على تقوية فكرته ويزداد هذا التأكيد لهذه الخاصية الحميدة فى كتابة شوقى بالوقوف أمام حرفى الجر اللذين استخدمهما مع كل فعل من هذين الفعلين ، وذلك حيث نراه يستخدم مع "قم" كلمة "الى" ، لما فيها من بعد المسافة بين القائم والسماء ، ومع "قف" حرف الباء الذى يحمل معنى القرب ويتضمن الظرفية المستفادة من حرف الجر "فى" .

ولم يتخل الكاتب عن الأسلوب المنطقى خلال هذه المقالة ، فمن ذلك تتابع حديثه فى تسلسل منطقى عن مراحل تكون المطر فى السحاب حتى نزوله الى الأرض وذلك حيث يقول : (وقف بالأرض سلها من زم السحاب وأجراها ورحل الرياح وعراها) فالمطر أول مايكون ، يكون سحابا ولايصل الى الأرض إلا إذا حركته الرياح بعد سكونه تحريكا يجرده من الماء بل يحيله كله إلى ماء .

ويظهر التسلسل المنطقى بوضوح أكثر فى حديث الكاتب عن الجبال بوصفها آية من آيات الله الدالة على وحدانيته المتفرد بالقدرة والجبروت وذلك حيث يقول : (ومن أقعد الجبال وأنهض ذراها ومن الذى يحل حباها ، فتخر له فى غد جباها ، أليس الذى بدأها غبرات ، ثم جعلها صخرات ، ثم فرقها مشمخرات) فالجبال الراسيات الشامخات المتفرقة فى أنحاء الأرض لاتخر إلا لقوى قدير لديه القدرة على إعادتها الى سيرتها الأولى من التراب ألم يكن هو الذى بدأها

من ذرات من الغبار دقيقة ثم جمع هذه الذرات مكونا منها صخرات صلبة عتيدة ثم كون من هذه الصخرات جبالا شما مشمخرات . مادام الأمر كذلك فعلى هذا الملحد التسليم بقدرة الله ووحدانيته ، وبعد ما انتهى الكاتب من استعراض الآيات الدالة على وحدانية الله من السماء وماحوت والأمطار التى تربط بين الأرض والسماء والجبال التى هى أضخم شيء على وجه الأرض انتقل الى نوع آخر من آيات الله فى الأرض وهى وإن كانت صغيرة الحجم فإنها كبيرة الدلالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ، تلك الآية الدالة على قدرته هى النملة التى طلب الكاتب من الملحد أن يسألها عن الذى أدقها خلقا وملأها خلقا وسلكها طرقا تبتغى رزقا ، لاشك أن الملحد إذا ماسأل نفسه هذه الأسئلة - لعجزه عن سؤاله النمل - توصل الى الجواب الشافى الذى طالما أضناه البحث عن إجابته ، وقبل أن يفيق الملحد من دهشته الناتجة عن اكتشاف تخلفه عن ركب الموحدين يلقى الكاتب إليه أمرا آخر يطلب منه تنفيذه ليزداد يقينه ويرسخ إيمانه . وقد تخير الكاتب فى هذه المرة آية من آيات الله سبحانه وتعالى التى يراها الملحد وغيره ، ويتمتع بآثارها ولايستطيع الوصول الى سرها ، لأن الإلحاد حجبه عنه ؛ تلك الآية هى النحل وذلك حيث يقول : (وسل النحل من ألبسها الحبر ، وقلدها الإبر ، وأطعمها صفو الزهر ، وسخرها طاهية للبشر) .

بعد هذه الأسئلة التى أوردها الكاتب والتى لاجواب لها إلا بكلمة واحدة شافية كافية هى " الله " يتيقن من أنه أحل فى قلب الملحد التوحيد مكان الإلحاد فيأخذ فى عتابه على ماقدمت يداه ومافرط منه من غفلة عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله ، تلك الأيات التى تشبه فى وضوحها الأرض الذلول الممهدة الواضحة المسالك واتباعه للفلسفة التى تشبه الأرض الوعرة التى تكتنفها الظلمات حتى كأن متبعها يخبط فى عشواء من الضلال ، وذلك حيث يقول :

(لقد نهذت الذلول بالمسعفة ، وأخذت فى معامى الفلسفة على عشواء من الضلال معسفة) .

وبعدما انتهى الكاتب من توضيح الفرق بين الطريق السهلة والطريق الوعرة فى الوصول الى الوحدانية أخذ فى استئناف عتاب الملحد ، مستخدما فى ذلك صيغة السؤال ، وراعى أن يجىء سؤاله لهذا الملحد المتفلسف عن أشياء يظن أنه وحده يستطيع الإجابة عنها ، وبعدما يثبت الكاتب عدم قدرة هذا الملحد على الإجابة عما سأله عنه يعرفه أن الموحدين يعرفون مثله هذه المصطلحات الفلسفية التى يتشدق بها الملاحدة ، ولكن يزيد الموحدون على الملاحدة بأنهم توصلوا إلى معرفة الحقيقة التى ظل هؤلاء الملاحدة ينشدونها وسيظلون يلهثون وراء العثور عليها بقية حياتهم . تلك الحقيقة هى الإيمان بالله وحده ، ويظهر ذلك من قوله : (فخبرنى : الطبيعة من طبعها ، والنظم المتقادمة من وضعها ، والحياة الصانعة من صنعها ، والحركة الدافعة من الذى دفعها ؟ إعرفنا كما عرفت المادة ، ولكن هدينا وضللت الجادة ، وقلنا مثلك بالهيولى ، ولكن لم نجد اليد الطولى ، ولاأنكرنا الحقيقة الأولى ، أتينا العناصر من عنصرها ورددنا الجواهر إلى جوهرها) .

وقرب ختام المقال نرى الكاتب يعرض أمام هذا الملحد أصناف النعيم الذى ينعم به الموحدون فى الدنيا والآخرة نتيجة إيمانهم بالله الواحد ، مشيرا ضمنا إلى العذاب الذى يقاسى منه الملاحدة فى الدنيا والآخرة . وذلك حيث يقول : (اطرحنا فاسترحنا ، وسلمنا فسلمنا ، وآمنا فأمنا) .

ومنعم النظر فى هذه الكلمات يلاحظ عليها روح المنطق الذى تترتب فيه النتائج على المقدمات ، فالاستراحة مترتبه على طرح الحمل والسلامة مترتبة على التسليم والأمان مترتب على الإيمان ؛ أى لولا طرح الحمل لما تحققت الاستراحة

ولولا التسليم ماتحققت السلامة ، ولولا الايمان ماتحقق الأمان ، وبعدما تتناول الكاتب هذه القضية العقائدية بأسلوب منطقى بديعى يحمل فى ثناياه للقارئ بالإضافة إلى الاقناع الامتاع . تلك القضية التى عادة مايكون الحديث فيها محفوفا بالحذر الذى يؤدى إلى تعسر من يتصدون لمعالجتها فى الأسلوب ، بعد ذلك كله نرى الكاتب يصل إلى ختام هذا المقال بحسم الحديث فى هذه القضية بذكر الفرق بين الموحدين والملحدين ذلك الفرق الذى أوضح قدرة الكاتب على الايجاز غير المخل بعدما أثبت لنا من خلال هذا المقال قدرته على الاطناب غير الممل ، وبعد هذا الختام بحق مسك الكلام وهو ماتضمنه قوله : (وماالفرق بيننا وبينك إلا أنك قد عجزت فقلت : سر من الأسرار ، وعجزنا نحن فقلنا : الله وراء كل ستار) .

ولما كانت قيمة العمل الأدبى لاتكتمل إلا إذا توفرت لها ركائز ثلاث هى : الفكرة ، والطريقة التى سلكت فى عرض هذه الفكرة ، والأسلوب الذى صيغ فيه هذا العرض ، وسبق الوقوف على الطريقة التى عرض بها الكاتب فكرته ولاحظنا أنها أنسب طريقة لمثل هذه الموضوعات بعدما تبين للقارئ قيمة الفكرة نفسها من حيث إنها تعالج موضوعا لايدانيه فى السمو والشرف أى موضوع ألا وهو وحدانية الله عز وجل بقى الوقوف أمام الأسلوب الذى صاغ فيه الكاتب فكرته هذه .

والملاحظ فى هذه القطعة من ألفها إلى يائها ارتفاع مستواها الفنى ارتفاعا يتماشى وقيمة الفكرة السامية وجودة العرض المقنع وأول ما يلفت النظر إلى الجمال الفنى فيها هو السجع الذى تستدعيه الفكرة لتزداد به وضوحا ، ذلك السجع غير المتكلف الذى يأتى به الكاتب موازرا للفكرة فى إثبات وجودها ، لامنازعا لها فى إثبات وجوده .

وبالإضافة إلى السجع يستوقف القارئ في هذه القطعة من ألوان البديع الجناس الذى أتى به الكاتب غير متكلف مما جعله يشجى السامع بما يحدثه من موسيقى خارجية ، من ذلك قوله : "الملاحدة" و"الجاحدة" و"الواحدة" وقوله : "المرآة" و"المرقاة" ، و"النظر" و"الأثر" ، و"نقص" و"قص" ، "الفلك" و"الحلك" و"ترك" و"شرك" و"ائتلاف" و"اختلاف" و"الخبر" و"الخبر" و"طرقا" و"زرقا" و"الحبر" و"الابر" ، و"الملك" و"الملك" ، و"مسعفة" و"معسفة" .

وبالإضافة إلى السجع والجناس غير المتكلف يمكننا التمتع فى هذه القطعة أيضا بالطباق حيث يقوم بتسليط الأضواء على المعانى فتظهر بعد خفاء ، ويتسع حيزها فى الذهن بعد انطواء ، ومن أمثلة الطباق فى هذه القطعة قوله : "النور" و"الحلك" ، و"نجا" و"هلك" ، و"أقعد" و"أنهض" ، و"جمعها" و"مزقها" ، و"ائتلاف" و"اختلاف" .

ومما يلفت النظر الى براعة هذا الأديب إتيانه بمحسنين اثنين فى وقت واحد وذلك مثل مانرى فى قوله : "ائتلاف" و"اختلاف" حيث أبدع فى الطباق الذى يربط بين الكلمتين برباط التضاد فى المعنى ، والجناس الذى يربط بينهما برباط التشابه فى المبنى ، وقوله : "مسعفة" و"معسفة" فإن هاتين الكلمتين يربط بينهما رباطان أحدهما لفظى يتمثل فى الجناس والآخر معنوى ويتمثل فى الطباق .

ومن ألوان البديع الرائعة الحسن فى هذه القطعة أيضا الترادف الذى كان أداة طيعة فى يد الكاتب مما يؤكد ثروته اللغوية وذوقه الفنى حيث جمع بين الترادف والجناس فى وقت واحد كما رأينا فى قوله "منابع الملاحدة" ، و"مشايع العصبة الجاحدة" و"منكر الحقيقة الواحدة" وقوله : "نقص النظر" و"قص الأثر" ، و"اجمع الخُبر والخبر" .

ومما يزيد من حسن هذه اللفتة البديعية أن الكاتب أتى فى الطائفة

الأولى بمترادفاته فى صيغة الاسم : " متابع ، مشايع ، جاحد " أما الطائفة الثانية فقد أتى فيها بالمترادفات فى صيغة الفعل " قم ، انظر ، اجمع " مما يؤكد براعة شوقى الفنية ، وقدرة اللغة على صنع العجب العجاب بلا تكلف ولا إسفاف

وبالإضافة إلى كل هذه الألوان البديعية نرى الاستعارات المكنية والتشبيهات يلعب فى هذه القطعة دورا رئيسيا فى إبراز المعانى الخفية فى إطار من الصور الحسية الجلية وذلك مثل قوله : " وقف بالأرض سلها من نم السحاب وأجراها ، ورحل الرياح وغراها " وقوله : " وسل النحل من ألبسها الحبر وقلدها الإبر ، وأطعمها صفو الزهر وسخرها طاهية للبشر " وقوله : " لقد نبذت الذلول المسعفة ، وأخذت فى معامى الفلسفة على عشواء من الضلال معسفة " ، حيث نراه فى الصورة الأولى شبه السحاب ببعير مخطم ويفهم ذلك من قوله : " نم السحاب " كما شبه فيها الرياح بالبعير مشدود على ظهره الرحل تمهيدا للسير ويفهم ذلك من قوله : " ورحل الرياح " .

أما الصورة الثانية فنراه فيها يشبه النحل وهو يتخايل تحت أشعة الشمس بمن يتخايل بلبس البرود الملونة ، مرة ، ومرة ثانية يشبهها وهى تحمى نفسها بزنابها بمن يتقلد سيفا ، ومرة ثالثة يشبهها وهى تخرج من بطنها العسل الذى يتغذى به البشر بطاهية سخرها الله للقيام بهذه العملية ، أما تشبيهه للنحل بلابس البرود الملونة فيظهر من قوله : " وسل النحل من ألبسها الحبر " وأما تشبيهه لها بمتقلد السيف فيظهر من قوله : " وقلدها الابر " وأما التشبيه الثالث للنحل بالطاهية فيظهر من قوله : " وسخرها طاهية للبشر " .

حقا إن من يتأمل ماقاله الكاتب عن النحل يلاحظ قرب الشبه من المشبه به قربا يكاد يجعله هو ، ولكن هذا القرب لايفسد الجمال الفنى الكامن فى الاستعارة أو التشخيص ؛ لأن هذا يدل على بديع صنع الله الذى أتقن كل شئ خلقه

كما يدل على دقة حس الكاتب الفنى الذى استطاع عقد التشبيه الدقيق بين شيئين لايتمكن الكاتب العادى من عقد التشبيه بينهما لقرب الشبه بين كليهما (٤٦) .

وأما الصورة الثالثة التى رسمها الكاتب للإيمان والإلحاد فتظهر من تشبيهه حال المؤمن الذى سلم لله بكل مالايستطيع الوصول إليه فاستراح وسلم وأمن بمن يسير على أرض ذلول ممهدة تسعفه فى الوصول إلى هدفه بلاعناء ولامخاطرة ، وحتى يستطيع الكاتب أن يميز للملحد الخبيث من الطيب أتى له بصورة مقابلة للصورة الأولى ، شبه فيها الآخذ بمعامى الفلسفة التى تقوده إلى الضلال بمن يسير فى مهامة معسفة يخبط فيها السائر خبط عشواء ، وهى صورة رائعة فيها إشارة ضمنية للصورة التى رسمها الله عز وجل للضالين والمهتدين من خلال قوله سبحانه وتعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون) (٤٧) .

وبعد تحليل نموذج لكتابات شوقى فى " أسواق الذهب " يتضح للقارئ أمران :

أحدهما : أن أحمد شوقى وإن لم يعرف بين جمهور القراء إلا بالشعر فإن نثره الفنى - كما رأينا - من خلال " أسواق الذهب " لايقل روعة عن شعره وإن قل كما ، ولعل هذا هو السبب فى غلبة اسم الشاعر عليه .

ثانيهما : أن العصر الحديث لم يخل من جهابذة فى النثر العربى ؛ أى أن عصر الكتابة الفنية لم يخب ضوءه بعد خلف ستر العامية التى تجد هذه الأيام سوقا رائجة بين من تخصصوا فى دراسة العربية وتدريسها جريا وراء السهولة والرواج بين جمهرة المتلقين .

١ـ زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأموية
٢ـ هو قس بن ساعدة الايادى ، ويكاد يكون أخطب خطباء الجاهلية
٣ـ الميّاد : الكثير الميد والميد : الميل والتحرك
٤ـ أطواق الذهب وأطباق الذهب : كتابان من كتب المقامات فى الوعظ والارشاد ، وكلاهما فى عليا مراتب البلاغة : الأول لجار الله الزمخشرى ، والثانى للعلامة الأصفهانى عليهما رحمة الله
٥ـ وسم الشئ : جعل فيه أثرا والوسم : الأثر والعلامة
٦ـ أحمد شوقى ، أسواق الذهب : ص ٤٣
٧ـ يقع الكتاب فى مائة وثمان وثلاثين صحيفة من القطع المتوسط الحجم التى تتسع الواحدة منها لأربعة عشر سطرا فى كل سطر اثنتا عشرة كلمة
٨ـ انظر فهرست كتاب أسواق الذهب لشوقى
٩ـ انظر مقدمة الشوقيات التى كتبها د. محمد حسين هيكل ط. دار الكتاب العربى ببيروت
١٠ـ انظر مقالته عن الشمس ص ٤٢ـ٤٤ من كتاب " أسواق الذهب "
١١ـ المقعد : الذى يشكو القعاد : وهو داء يقعد المصاب به عن المشى
١٢ـ المرقاة : السلم
١٣ـ تقص : أرسلة إلى أقصاه
١٤ـ قص الأثر : اقتفاه
١٥ـ الخبر : الاختبار بالمشاهدة ، والخبر : الرواية بالسماع
١٦ـ الحلك : الظلام
١٧ـ تظنه حرا طليقا ، وهو أينما حل فى متناول قبضة الصياد
١٨ـ استهدف : أصبح غرض السهام . والمراد أنه لا يكاد ينجو من سهم مصوب إليه حتى يدركه الموت من سهم آخر
١٩ـ زم الناقة : خطمها
٢٠ـ رحل البعير : شد على ظهره الرحل تمهيدا للمسير
٢١ـ عراها : جردها مما فيها من أمطار
٢٢ـ أقعد الجبال : ثبت قواعدها فى الأرض . وأنهض ذراها : أى رفع عاليها شامخة فى السماء
٢٣ـ يهحل حباها : أى يفكها من حبوتها وينهضها من ربضتها
٢٤ـ غبرات : جمع غبرة ـ بتسكين الباء ـ وهى ذرة الغبار
٢٥ـ فرقها : فى الأرض . ومشمخرات : أى باذخات
٢٦ـ أذقها : صيرها دقيقة
٢٧ـ خلق النمل : تلك النظم المتسقة التى يوحى لها بها الإلهام
٢٨ـ سلكها طرقا : جعل لها طرقا تسلكها
٢٩ـ الحبر : جمع حبرة كعنبة ، وهى برود يمنية ملونة وقد شبه بها المؤلف تلك الألوان الزاهية التى يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس
٣٠ـ قلده السيف : وضع حمالته على عنقه
٣١ـ طاهية : طابخة تطبخ للناس فى بطنها عسلا

٣٢- الذلول من الدواب : ماكانت سهلة القياد ، والمراد بها هنا الشريعة السمحة

٣٣- المسعفة : التى تسعف أبناءها باليقين والايمان

٣٤- المعامى : المجاهل

٣٥- العشواء : العمياء ، وأعسف : خبط فى السير

٣٦- طبعها : خلقها وهنا يبدأ المؤلف فى تعجيز الملحدين

٣٧- النظم المتقادمة والحياة الصانعة والقوة الدافعة ، وكل هذه القوى يظن الملحدون كفرا أنها هى الأصل فى الكائنات

٣٨- الجادة : الطريق القويم

٣٩- الهيولى : مادة وشبه الأوائل طينة العالم بها

٤٠- اليد الطولى : يد الله التى أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح

٤١- الحقيقة الأولى : وجود الله

٤٢- العناصر جمع عنصر ، وهو أولا بمعنى المادة البسيطة وثانيا بمعنى الأصل ، وأتيناها : أى بحثنا فيها

٤٣- الجواهر : جمع جوهره وهو الحجر يستخرج منه شئ ينتفع به ، والجوهر ثانيا بمعنى الأصل والجبلة

٤٤- اطرح الحمل : ألقاه عن عاتقه ، والمقصود من هذه الجملة وما بعدها : آمنا بالله وتركنا مادون هذا من التفكير العقيم الذى لانهاية له والبحث الضال الذى لا يؤمن فيه العثار

٤٥- أحمد شوقى : أسواق الذهب : ص ٦-٩ ط : المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٩٧٠م ١٣٩٠هـ

٤٦- عالج البلاغيون القدماء هذه القضية معالجة تحتاج إلى إعادة النظر وقد لاحظ ذلك بعض علمائنا المحدثين مثل د : أحمد بدوى فى كتابه "من بلاغة القرآن"

٤٧- سورة البقرة : آية ١٦ و ١٧